الممارسة الطبية في ضوء منظومة مقاصد الشريعة الإسلامية

حنـــان ســاري[1] , عبد العزيز برغوث [2]

1.دكتواره من قسم أصول الدين ومقارنة الأديان، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.
2.أستاذ بقسم المعرفة الأساسية والدراسات البينية، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.

الملخص

يتناول هذا البحث بالتحليل مسألة الممارسة الطبية من خلال منظومة مقاصد الشريعة، وبيان أهمية تطبيق المباديء الطبية الإسلامية، والقيم الأخلاقية التي شدد عليها الإسلام ،وجعلها أساسا لترشيد الممارسة الطبية. وقد حفل الإسلام وتاريخه وحضارته بالتوجيهات والممارسات المتعلقة بممارسة مهنة الطب إعدادا، وتكوينا وممارسة وتوجيها وتقويما لسلوك الطبيب وعمله الميداني. فبالإضافة إلى أهمية حصول الطبيب على التكوين العلمي والمعرفي العالي يحتاج إلى امتلاك القيم والأخلاقيات التي توجه عمله، وترشد ممارسته الطبية في واقع الحياة. لقد كانت الممارسة الطبية في عمقها عبادة وأداءا لواجب إنساني ومجتمعي أصيل في الإسلام. كما كانت الممارسة الطبية محكومة بمقاصد وقيم أخلاقية واضحة. وقد اتبع هذا البحث المنهج الاستقراءي وتحليل النصوص ليقدم تصورا متكاملا للممارسة الطبية في ضوء منظومة المقاصد الشرعية. وتوصل البحث إلى أن الإسلام ترك تراثا مقاصديا وقيميا وأخلاقيا كبيرا لترشيد الممارسة الطبية وضبطها لتكون إنسانية في المقام الأول، وعلمية رصينة في المقام الثاني. وأوصى البحث بضرورة أن تتعمق الدراسات والأبحاث في هذا المجال المهم من أجل تعميق النظر في المنظومة المقاصدية الخاصة بالممارسات الطبية، وترسيخها في البرامج التكوينية لطلبة الطب، وجعلها محورا أساسيا في تكوينهم وممارستهم.

الكلمات المفتاحية: الممارسة الطبية- منظومة المقاصد- القيم الأخلاقية في الطب.

مقدمة

إن الإسلام بوصفه منظومة حياة متكاملة، ورؤية شمولية للخالق والحياة والكون والإنسان، قدم للإنسانية منهاجاً أخلاقياً علمياً لتوجيه الإنسان في مختلف مناشطه، وفعالياته التعبدية، والتفكرية، والروحية، والأخلاقية، والسلوكية، والاجتماعية، والعمرانية، والثقافية، والحضارية...وغيرها. وقد استخرج علماء المسلمين من رؤية الإسلام العليا إطاراً أخلاقياً مقاصدياً، لتوجيه الإنسان والمجتمع إلى المقاصد العليا التي جاءت من أجلها الشريعة الإسلامية بوصفها شريعة رحمة وتخفيف. واهتم هذا الإطار المقاصدي بوضع المبادئ والقيم الكبرى التي ينبغي أن تحكم النشاط الإنساني، وتدور حوله إيجاداً، ومحافظة، وتحسيناً، وتطويراً استجابة للواقع، والوقائع، والأحوال، والتحديات التي يواجهها الإنسان في كل مرحلة من مراحل تطوره ونموه قوة وضعفاً.

وتشتمل هذه المنظومة المقاصدية على خمس قيم كبرى، تدور حولها حياة البشر في الحال والمآل، وفي الوجود والإستمرار. وهذه القيم الخمسة هي: الحفاظ على النفس، والحياة، والعقل، والعرض والمال. فبدون حماية هذه المقاصد وحفظها في واقع الإنساني الفردي والاجتماعي، من خلال توفير الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات الخاصة بكل مقصد من المقاصد، فإن حياة البشر تختل، وعمرانهم يتهاوى، ووجودهم يتهدد بالإنقراض. ولهذ السبب جاءت الشريعة لتضع المنهاج الصحيح للحفاظ عليها، وجعلها مداراً للنشاط الإستخلافي والعمراني للإنسان.

والإنسان في سياق حمايته وتفعيله لهذه المنظومة المقاصدية يهتم بحفظ حياته ونفسه من الهلاك، والتضرر لكي لا يتلف قوامه الجسدي والنفسي والذهني والعقلي. ولهذا كان مقصد حفظ النفس وحفظ الحياة من المقاصد الهامة التي احتفت بها الشريعة، ووضعت لها التشريعات، والتوجيهات اللازمة للحفاظ عليها. ومن ثم تطورات المعارف، والعلوم، والملكات، والمهارات، والخبرات المتنوعة والمتعددة الموجهة للحفاظ على حياة الإنسان، ونفسه، وقوامه الجسدي والنفسي. وتطورت مهن راقية لتحقيق هذا المقصد منها مهنة الطب مثلاً. وقد وضع لها الإسلام منظومة متكاملة من القيم والمبادئ، والأخلاق والتوجيهات، والإجراءات، والتعاملات، والملكات التي تجعل ممارساتها منضبطة ومتوازنة وأخلاقية تحقق مقاصد الشريعة في الحفاظ على الحياة والنفس.

ولما كان لهذه المهنة أهمية كبيرة في الإسلام، وفي الحفاظ على مقصد من مقاصد هذه الشريعة الغراء، اعتنى بها الإسلام وعلماءه أيما اهتمام من خلال ضبط هذه المهنة، وممارساتها وأخلاقياتها وملكاتها وضوابطها ومعاييرها، وجعلها خاضعة للمعايير العلمية والأسس الأخلاقية الراقية. ونظراً لأهمية الممارسات الطبية في الإسلام، فإن هذا البحث سيقوم بتحليل بعض هذه الممارسات والضوابط والقيم التي وضعها الإسلام وضبط بها هذه المهنة وجعلها من أرقى المهن التي احتفت بها البشرية جمعاء. فبدون التداوي والتطبيب الجسدي والنفسي والعقلي والروحي، فإن الإنسان يتعرض في وجوده لخطر

Corresponding author :
Hanane Sari
Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences
International Islamic University Malaysia
P.O. Box 10, 50728 Kuala Lumpur
Email: hananejustice@gmail.com

الهلاك والفناء.

وقد اتبع البحث المنهج الإستقرائي، ومنهج تحليل النصوص، للتتبع جهود العلماء المسلمين في هذا المجال العام، واستخراج أهم الممارسات والقيم التي حكمت هذه المهنة وضبطتها، وجعلتها من أرقى المهن تأثير في حفظ النفس والحياة والعقل، وضبطتها بمنظومة قيمية هائلة، وجعلتها من الملكات التي ينبغي أن تتعلم وتمارس وفق أصولها، وطبائعها، وأهدافها، ووظيفتها في حياة الفرد والمجتمع.

وقد تم تقسيم البحث إلى مقدمة ومبحثين أساسيان وخاتمة. والمباحث هي:
المبحث الأول: الإطار المقاصدي لدراسة الممارسة الطبية في الإسلام
المبحث الثاني: أخلاق الطبيب وواجباته في ضوء مقاصد الشريعة
وختم البحث بخاتمة تضمن الخلاصة وبعض التوصيات.

المبحث الأول: الإطار المقاصدي لدراسة الممارسة الطبية في الإسلام

أولا: الأبعاد الحضارية والاجتماعية للعلوم الطبية وممارستها

إن مهنة الطب تعد من أرقى مهن المجتمع الإنساني، سواء في مكانتها بين المهن اجتماعياً ومادياً، أو في سمو ورفعة ما تتعلق به من حياة الإنسان وصحته ومشاعره. ولقد تميزت مهنة الطب منذ فجر التاريخ بعظم المسؤوليات المنوطة بمن يمارسها، لما تتطلبه من علم غزير، وخلق قويم، وتفان في الأداء، وإنكار للذات، ورحمة بالناس جميعاً دون تمييز.[1] وتتعلق مهنة الطب بمقصودٍ عظيم من مقاصد الشرع وهو حفظ النفس، ويُعتبر هذا القصد مشترَكاً إنسانياً عاماً لا يختلف أحد على أهميته وأهمية هذه المهنة ونبل القائمين عليها، مهما كان جنسهم ودينهم وفلسفتهم للحياة الإنسانية.[2]

وقد أجمع العلماء والحكماء على شرف مهنة الطب وعظم أهمية الطبيب، قال الشافعي رحمه الله: "صنفان لا غنى للناس عنهما: العلماء لأديانهم، والأطباء لأبدانهم".[3] وتزداد مهنة الطب شرفاً إذا روعي فيها شرطان أساسيان. أولها: أن تمارس بكل إتقان وإخلاص. وثانيهما: أن يراعي الطبيب في سلوكه وتصرفاته الخلق الكريم.[4] ولقد اهتم الأطباء المسلمون بأخلاقيات وآداب المهنة، وألفوا فيها، فمنهم من أفرد لذلك كتاباً ك(أخلاق الطبيب)لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي، ومنهم من ضمنها في كتبه الطبية، ومنهم من نقلت عنه نصوص مأثورة دونت في ترجمته كما في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لأحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة. بل حتى بعض الفقهاء أولى هذا الجانب أهمية، فهذا أبو عبد الله محمد بن محمد المالكي المعروف بابن الحاج ألف كتابه (المدخل) ضمنه آداب الطبيب والتي تكاد أن تكون صورة مختصرة لما هو متفق عليه في هذا العصر. هذا فضلاً عما ألفه علماء المسلمين في الأخلاق وهو تراث ضخم قد لا يوجد في أي حضارة أخرى.[5]

ولا يَخفى على أحد، ما في تعلُّم العلوم الطبيَّة، مِن أهمية عظيمة، تَبرُز في مُستوى الفرد والمجتمع، وقد غدا مِن المسلَّم به ما يتحقَّق عن ذلك مِن نفْعٍ عَظيم، ومَصالِحَ جليَّة، يقع على رأسها حفْظ الصحَّة والبدن، وهو أحد أهم مَقاصِد الشريعة وغاياتها، كما أن سلامة البدن، وخلوَّه مِن السقم والعلَّة، عامل هامٌّ يَقوى به المسلم على طاعة ربه، وأداء حقوقه، وما خُلق لأجله مِن عبادة الله وتوحيده.

كان الطب الإسلامي يسبق عصره بألف سنة على الأقل، فأيام كانت لندن وباريس ما تزالان تغطان في سبات القرون الوسطى، كان هناك العديد من المستشفيات في بغداد والقاهرة وقرطبة، يعمل بها الكثير من الرجال والنساء في علاج المرضى من الجنسين، وبدأ يمارس الطب من خلال مستشفيات متعددة الأجنحة، وتدل الأساليب الجديدة التي كان المستشفى العام ببغداد يطبقها في ذلك الحين على أن العرب كانوا رواداً في هذه المجالس.[6] ومما يثير الدهشة أنهم أنشئوا نافورات بالقرب من أجنحة المرضى المصابين بالحمى حتى يلطفوا من حرارة الهواء، وكان المخبولون، يعاملون بلطف ورقة، وهو ما لا يحدث الآن في معظم بلاد العالم إلا في القليل النادر، وكانت تعزف الموسيقى، وتحكى القصص للتخفيف من آلام أولئك المرضى الذين يعانون من القلق والتوتر، وتكاثرت المستشفيات باسم المارستانات في أنحاء الدولة الإسلامية، وكانت لهم طريقة لطيفة للتحقق من جودة الهواء وصلاح الموقع لبناء المستشفيات، تغني عن الأساليب العلمية التي اتبعت في العصر الحاضر بعد كشف الجراثيم والإحاطة بوسائل التحليل. فكانوا يعلقون اللحوم في مواضع مختلفة من المدينة في وقت واحد، فأيها أسرع إليه العفن اجتنبوا مكانه واختاروا المكان الذي تتأخر فيه عوارض الفساد.[7]

وكانت العناية تبذل للأغنياء والفقراء على حد سواء دون أي تفرقة، وكان المعدم يمنح خسراً قطع ذهبية عند مغادرته المستشفى لمساعدته أثناء فترة النقاهة، وكانت هناك مكتبات وصيدليات ملحقة بتلك المراكز الطبية التي حشد للعمل بها العديد من الأطباء المقيمين والخارجين والممرضين، وكانت هناك أيضاً عيادات متنقلة لخدمة المعوقين والفقراء الذي يعيشون في مناطق نائية، وتلفت هذه العيادات المتنقلة نظرنا بصفة خاصة في ضوء الاهتمام العالمي الحالي بتوفير الخدمات الصحية الأولية.[8] ويظن معظم الناس أن إخضاع الأدوية للرقابة لتوخي جودتها هو ابتكار حديث، ولكن في الواقع كانت للطب الإسلامي لوائح لتنظيم صناعة الدواء وضمان جودتها، وكان الصيادلة من المتخصصين الذين يمارسون مهنتهم بموجب ترخيص خاص وكان عليهم تحضير العقاقير وفق ما يصفه الطبيب.[9] وبدأ نور الشرق يشع على أوروبا التي كان يلفها ظلام القرون الوسطى، فقد اشتهر العرب والفرس بعلمهم الواسع في مجالات الطب والتخدير وعلم البكتريا وإدارة المستشفيات والجراحة وصناعة العقاقير وأمراض العيون والأمراض العقلية الجسمانية والعلاج النفسي والتعليم الطبي.[10] لقد كان الأطباء المسلمين علماء بحق، وكانوا يتميزون بعقليات مفكرة، وطاقات جبارة، مما يسر لهم قيادة البشرية لعدة قرون في هذا المجال المهم من مجالات العلوم.

وقد ارتبطت ممارسات الطب في الإسلام بمنظومة مقاصد الشريعة: بحيث ضبطت بمجموعة من القيم والأخلاقيات، وعززت بمجموعة من الملكات والمهارات، جعلت علماء الطب المسلمين من أرقى العلماء، وأكثرهم خبرة وخدمة للإنسان وحفظاً على نفسه وحياته، لكونهم يرون أن الممارسة الطبية هي أولاً وقبل كل شيء عبادة وترقي روحي وأخلاقي، وعمل صالح يرتقي بصاحبه إلى مراتب الإتقان والإحسان. فكانوا مثالاً يحتذى به في أخلاقيات الممارسة الطبية، وفي حماية حقوق المريض، وفي تقديم الخدمة المتقنة له بكل إخلاص.

ثانيا: الإطار المقاصدي للممارسة الطبية وأخلاقياتها

لا شك بأن الإسلام دين اهتم بحياة الإنسان حيث جعل واحدا من أعظم مقاصده حفظ النفس من التلف، ويدخل ضمنها الحفاظ على البدن والجسم. ومن ثم اهتم بالطب بوصفه المدخل الصحيح للحفاظ على صحة الإنسان الجسدية والنفسية والعقلية.[11] وإن

امتداد آثار التطور العلمي الطبي إلى بعض المجتمعات قد يفضي إلى وجود افتراقٍ ما بين طبيعة الممارسة الطبية المتقدمة والمتشعبة اليوم وبين القوانين والضوابط التي تحكم العلاقة المهنية بين الطبيب والمريض، ولعل هذا أظهر ما يكون في الدول والمجتمعات التي تكون التقنيات الطبية فيها مستوردة لا أصيلة، بحيث لا يكون هناك مجال زمني لمجاراة التطور العلمي بالضبط القانوني والأخلاقي، ولا يتعارض هذا مع وجود أصول أو كليات قانونية شرعية تحكم هذه العلاقة في الجملة، غير أن الحاجة اليوم هي للتقنين التفصيلي الذي يمكِّن من فض الخصومات وحسم النزاعات بصورة منضبطة مطردة في المجتمع الواحد على وجه يحفظ الأصول الاعتقادية ويراعي الخصوصيات الاجتماعية ويحقق العدالة بين أفراد المجتمع الواحد.[12]

مقاصد الشرع ومقاصد الطب

أن العصر الحديث عرف تحسناً خلقياً واضحاً في عدة جوانب من حياة الجماعة البشرية. ومن أبرز مظاهر هذا التحسن ما يتمثل في قضية حقوق الإنسان التي أضحت من القضايا المميزة لعصرنا ومن أهم إيجابياته. ومنها كذلك ظهور العمل الإنساني الواسع، بمنظماته ومؤسساته المتخصصة، الحكومية والأهلية، المحلية والدولية، وفي طليعة ذلك نجد العمل الإغاثي الطبي. ولاشك أن هذين المجالين يجسدان ارتقاء خلقياً غير مسبوق في تاريخ البشرية، خاصة من حيث الحجم والفاعلية.[13]

وإذا كانت مجالات الحياة كلها تحتاج إلى الأخلاق، وتستقيم وترتقي بالأخلاق، فإن العمل الطبي هو في أصله وجوهره عمل أخلاقي، ولا تقوم له قائمة إلا بالأخلاق. وإذا كان مقام الطبيب ومكانته يتحققان ويقدران بحسب ماله من علم وخبرة وتجربة ومهارة، فإن النجاح الفعلي في ذلك يتوقف على مقدار ما له من محاسن الأخلاق؛ من رأفة ورحمة وشفقة، ومن رقة ورفق ولين، ومن صبر وأناة وتواضع...[14] أن النظرية الأخلاقية في الإسلام تتمحور حول منظومة مقاصد الشريعة، والتي تعمل وفق خمسة أهداف هي: حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ النسل، حفظ العقل، حفظ المال. وأن أية مداخلة طبية يجب أن تحقق جميع هذه الأهداف الخمسة حتى تعتبر أخلاقية.

حفظ الدين: وهو مرتبط بحفظ الصحة الجسدية والعقلية.وحفظ الدين مرتبط بالعبادة التي يسعى كل إنسان لتحقيقها، لذلك يعتبر العلاج الطبي مساهماً رئيسياً في العبادة بتوفير الصحة الجيدة للإنسان العابد سواء العقلية أو الجسدية كي يقوم بواجب العبادة من الصلاة والصيام والحج...[15]

حفظ النفس: إن الطب لا يمكنه منع أو تأخير حصول وقت الوفاة لأن ذلك بيد الله وحده، ولكنه يحاول الحفاظ على أفضل مستويات الصحة لحين وقت الوفاة. فالطب يساهم في الحفاظ على الحياة واستمراريتها بواسطة المحافظة على الوظائف الفسيولوجية للجسم بشكلها الجيد.[16]

حفظ النسل: يولي الطب اهتماماً بالأطفال وبصحتهم ويعتبرها أساساً لنشأتهم بشكل صحي وسليم لحين البلوغ، كما يهتم بمعالجة العقم عند الذكر أو الأنثى لتحقيق الإنجاب، بل ويتعداه إلى العناية بالمرأة الحامل وبالمولود بعد الولادة لتتم تنشئته بشكل صحي وسليم.[17]

حفظ العقل: إن دور الطب مهم جداً في هذا المجال، فإذا ما وجد مرضاً جسمياً عند المريض وأدى هذا المرض لتوتر أو قلق نفسي وعقلي عنده فإن القلق يزول بمجرد زوال العلة المسببة للمرض كما أن معالجة حالات الأعصاب تجعل المريض يحافظ على وظائفه النفسية والإدراكية بشكلها السليم والمتوازن.[18]

حفظ المال: إن صحة الأفراد مهمة جداً لأنهم مصدر الثروة الحقيقية للمجتمع ولهذا يتوجب رعايتهم ومعالجة أمراضهم والوقاية من حدوثها، فالمجتمعات التي تنتشر فيها الأمراض هي قليلة الإنتاج نسبة إلى المجتمعات ذات الأفراد الأصحاء.[19] وعلى هذا فمقاصد الطب مندرجة في مقاصد الشرع متلاحمة معها إلى حد كبير. ومعلوم أن حفظ النفوس-سواء في الشرع أو في الطب- لايقف عند الحفظ المادي، بل يشمل الحفظ المعنوي، بما يعنيه من سلامة وصحة وتوازن في الحالة النفسية والعقلية، وأن الغاية سعادة الإنسان. رسالة الطب هي نشر الشفاء والرحمة، ورسالة الدين هي نشر الشفاء الأوسع والرحمة الأعم﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]. فالشفاء والرحمة مقصدان مشتركان بين الرسالتين وإن تفاوتت الساحة والمساحة بينهما.[20]

ولعلماء الشريعة تعبير آخر يختصر مقاصد الشريعة وضرورياتها في كلمتين جامعتين هما: حفظ الأديان، وحفظ الأبدان. فمصالح الخلق مدارها على حفظ الأديان وحفظ الأبدان. وأساس السعادتين (الدنيوية والأخروية) حفظ الأديان وحفظ الأبدان.وعمدة الثقافات والحضارات حفظ الأديان وحفظ الأبدان. وأساس كل تنمية وترقية حفظ الأديان وحفظ الأبدان.[21] وسواء تعلق الأمر بالمجال الطبي أو بغيره من المجالات الدينية والدنيوية، بحفظ الأديان أو بحفظ الأبدان، فإن خُلُقَ التقوى يحتل مكان المركز والمنبع لسائر الأخلاق. وهذا ما صرح به عدد من العلماء، كما في قول ابن عاشور: "جماع مكارم الأخلاق يعود إلى التقوى".[22] وإذا ظهرت معاني التقوى وآثارها الإيجابية الشاملة على سلوك الإنسان في كل أحواله، فلا شك أن أحوج الناس إلى التحلي الدائم بخلق التقوى ومقتضياتها، هو من يضع الناس أرواحهم وأبدانهم وأسرارهم وأعراضهم أمانة بين يديه. إن ما يمكن أن يقدمه ويحققه الطبيب التقي بتقواه وإخلاصه، من حفظ لأرواح الناس وأبدانهم، وتخفيف لآلامهم ومعاناتهم، وتوفير لأموالهم وجهودهم، لا يقل حجماً ولا أهمية عما يقدمه من ذلك بعلمه وحنكته. فالطبيب التقي-بفضل تقواه وأمانته- يصبح رقيب نفسه وحسيبَ نفسه، فيستقيم باطنه وسِرُّهُ قبل ظاهره. فنزاهة الطبيب التقي وأمانته لا تتوقف على القسم الطبي، مثلما أن نزاهة الحاكم التقي وأمانته لا تتوقف على القسم الدستوري. وأما من حُرم فضيلة التقوى وترك محاسبة نفسه بنفسه، فلا ينفع معه قسم يوناني ولا إسلامي.[23]

ثالثا: خصائص الممارسة الطبية الإسلامية وعالميتها

لم تأتِ إنجازات وإسهامات المسلمين المعروفة في مجالات الطب بصورة عشوائية غير مدروسة، وإنما كان هناك منهج واضح قاد إلى هذا المستوى الراقي في البحث، وقاد إلى نتائج متميزة في هذا العلم المهم، ولهذا المنهج الحضاري الراقي خصائص كثيرة، منها:[24]

الخاصية الأولى: الانفتاح على الغير: كانت الحضارة الإسلامية منفتحة تمام الانفتاح في أمور العلوم الحياتية على غيرها من الحضارات، ولم يكن هناك أي حرج في أن يأخذ العلماء المسلمون من غير المسلمين، أو أن يعطي علماء المسلمين سواهم من غير المسلمين. وكان الطب من أوائل العلوم التي اهتم علماء المسلمين بالبحث فيها، عن طريق ترجمة أعمال السابقين من الأطباء من الحضارات المختلفة، وكانت أولى هذه المحاولات على يد خالد بن يزيد الأموي (ت٨٥هـ) الذي اهتم بالطب والكيمياء، وبدأ يترجم الكتب اليونانية، وخاصة ما كان

موجودًا منها في مكتبة الإسكندرية بمصر.[25]

وفي عهد الخلافة العباسية تزايدت حركة الترجمة بشكل ملحوظ، وخاصة في عهد هارون الرشيد، ثم ابنه المأمون من بعده، وانفتح الأطباء المسلمين انفتاحًا غير مسبوق على كل العلوم الطبية من مختلف الحضارات؛ فترجمت المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية والرومانية والسريانية في الطب، واطلع المسلمون على كمٍّ هائل من التجارب، وبخاصة التجارب اليونانية القديمة.[26]

ومن المهم أن نلفت الأنظار إلى ثلاث نقاط مهمَّة في خاصية الانفتاح على الغير:

النقطة الأولى: أن الأطباء المسلمين كانوا من الأمانة والنزاهة بحيث إنهم-دائما- كانوا ينسبون الفضل لأهله، وما ادَّعى طبيبٌ مسلم اكتشافًا طبيًّا أو سبقًا علميًّا نقله من عالم من الحضارات الأخرى، بل امتلأت كتب الأطباء المسلمين بأسماء العلماء الذين نقلوا عنهم، وأعطوهم التقدير الكافي والتبجيل الواضح. ومثال على ذلك كلام العلاَّمة الإسلامي الطبيب المشهور أبي بكر الرَّازي صاحب كتاب الحاوي (من أعظم الكتب في تاريخ الطب) وهو يقول: "...ولقد جمعت في كتابي هذا جملاً وعيونًا من صناعة الطب مما استخرجته من كتب (أبقراط) و(جالينوس) و(أرماسوس)، ومن دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء، ومن بعدهم من المحدثين في أحكام الطب مثل(بولس)و(آهرون)و(حنين بن إسحاق)و(يحيى ابن ماسويه)...وغيرهم.[27] هذه الأمانة العلمية المشرِّفة كانت بالفعل من أعظم مناقب علماء المسلمين، وبخاصة أن المعاصرين من أبناء الأمم الأخرى لم يكونوا يعرفون تاريخ أجدادهم، وبالتالي فقد كان من السهل جدًّا أن تُسرق أبحاثهم، لولا البُعد الأخلاقي العميق عند علماء المسلمين.[28]

النقطة الثانية: أن أطباء المسلمين لم يقفوا أبدًا عند حد النقل والترجمة، وإنما أخذوا تدريجيًا في تطوير ما نقلوه، ثم وصلوا إلى مرحلة الابتكار والتأليف، بل تناولوا ما نقلوه بالنقد والتحليل، ولم يكن هناك أدنى تردد في تناول نظريات مشاهير الأطباء القدماء بالتعليق والإضافة والحذف، وأحيانًا بالاعتراض الكامل على المحتوى.[29] وانعكست الآية هنا وأصبح أطباء أوروبا يقرءون كتب العربية ليستفيدوا منها في مزاولة الصناعة وكسب الأموال، فترجم كتاب القانون لابن سينا في القرن الثاني عشر وهو موسوعة جمعت خلاصة ما وصل إليه الطب عند العرب والإغريق والهنود والسريان والأنباط، وترجم كتاب الحاوي للرازي، وترجمت كتب ابن الهيثم في ذلك العصر فكان عليها معول الأوربيين اللاحقين جميعًا في البصريات.[30]

والنقطة الثالثة: أن الأطباء المسلمين لم يجعلوا الطب حكرًا عليهم، حتى في زمان قوة دولتهم، بل فتحوا الباب لكل العلماء المعاصرين من الديانات الأخرى؛ ليدلوا بدلوهم، وليساهموا بإنجازاتهم في سبيل تقدم هذا العلم المهم..علم الطب. فقد ظهرت أسماء نصرانية ويهودية مؤثرة في علم الطب مثل قسطا بن لوقا البعلبكي، وأبي النصر المسيحي، وهبة الله بن جميع الإسرائيلي...وغيرهم.[31] وتكفي الإشارة إلى أمر يدل على مدى التسامح الذي كان عند قادة المسلمين، ومدى الاقتناع عندهم بقبول الآخر، وهو أن الناصر صلاح الدين الأيوبي-رحمه الله- عندما دخل مصر، كان بصحبته ثمانية عشر طبيبًا، من بينهم ثمانيةٌ مسلمون وخمسة يهود وأربعة من النصارى، وسامريٌّ واحد.[32]

الخاصية الثانية: الاعتماد على التجريب والتطبيقات الواقعية:كانت الخاصية الثانية التي ميَّزت المنهج الحضاري عند المسلمين في دراسة الطب هي اعتمادهم على التجربة والمشاهدة والفروض؛ بمعنى أنه لم يكن منهجاً فلسفيًّا نظريًّا بحتاً، وإنما اعتمد –وبشكل رئيسي- على التجارب العلمية والتطبيقات الواقعية.. فقد اعتمد الأطباء المسلمون المنهج التجريبي في علم الطب، وكانوا يقومون في ذلك بتجربة طرق مختلفة ومتعددة للعلاج، وملاحظة الفروق بين هذه الطرق، وتسجيل ذلك بعناية ودقَّة.[33]

واهتم الأطباء المسلمون بتسجيل الملاحظات اهتماماً بالغاً؛ فكانوا يدوّنون ما يشاهدونه في الحالات المرضية المختلفة، كما اهتموا بمحاولة تبرير هذه الملاحظات بما يستطيعون، أو محاولة ابتكار العلاج المناسب لكل حالة..وبذلك حدث المزج الرائع بين العلوم النظرية والعلوم العملية، واستفادت البشرية من جهود العلماء السابقين واللاحقين.[34]

وانطلاقاً من هذا المنهج العظيم، وهو منهج الاعتماد على التجربة والملاحظة، وافتراض الفروض، ومحاولة تطبيقها..لم يقبل الأطباء المسلمون بالأجهزة والأدوات القديمة التي استخدمها قدماء الأطباء اليونانيين والفارسيين، بل بدءوا يفكرون في أدوات جديدة، وابتكروا أنواعاً عِدَّة، وجرّبوها، فما أثبت كفاءته منها استخدموه وطوّروه، حتى وضعوا بذلك أسساً علمية لكثير من أدوات الجراحة والولادة وعلاج الأسنان، وعلاج كسور العظام، وصلت أحيانًا إلى حد الإبهار، وبخاصة إذا نظرنا إلى التوقيت المبكر الذي ظهرت فيه هذه الآلات، وإلى خلوّ العالم في ذلك الوقت من أي منافس في هذا المجال.[35] وليس أدل على ذلك من إنتاج الجرَّاح الإسلامي الفذ أبي القاسم الزهراوي الذي أبهر العالم-ولعدة قرون-بأدواته الجراحية التي ابتكرها واستعملها بنفسه، وسجلها في كتابه الرائع (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وأصبحت هذه الآلات العبقرية هي النواة التي طُوِّرَتْ بعد ذلك بقرون لتصبح الأدوات الجراحية الحديثة.[36]

الخاصية الثالثة: الاهتمام بالضوابط الشرعية في العلاج:كل مناهج الأرض في جميع العلوم تُبتكر وتُنفَّذ دون ضابط شرعي، أو دليل إلهي على صحة أو بطلان عمل من الأعمال، لكن الطب الإسلامي تميز بأنه كان يستمد أصولاً ثوابتَ من القرآن والسُّنَّة ميّزته عن شتى المناهج الأخرى.وليس معنى هذا أن القرآن والسنة وضعا التفاصيل الدقيقة لعلاج الأمراض؛ فلا تعالج مرضاً إلا بدليل! ولكن معناه أن هناك أُطُراً عامة، وحدوداً خاصة وضعها الإسلام لتكون هادياً للأطباء المسلمين، ولكل العلماء وعموم الناس لكي ينجحوا في الوصول إلى الحق وإلى الخير والصلاح في كل فروع الحياة.[37]

فكان الأطباء المسلمون يحترمون القاعدة الشرعية الأصيلة التي رواها أبو الدرداء(ض) قال: قال رسول الله (ص): "إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ والدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ".[38]

فهذه خصائص عظيمة وفريدة قادت إلى تطور علم الطب في ظل الحضارة الإسلامية، وميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج، ومكَّنته من وضع أصول راسخة لهذا العلم العظيم، ويسَّرت لعلمائنا الأفذاذ أن يقودوا البشرية كلها لعدة قرون.

المبحث الثاني: أخلاق الطبيب وواجباته في ضوء مقاصد الشريعة

إن آداب مزاولة مهنة الطب موجودة منذ القدم، ومازالت عليه حتى الآن، إلا أن أهميتها اليوم هي أكثر بكثير من السابق وذلك بسبب أن هذه الآداب والأخلاق المهنية كانت قديماً مرتبطة بتعاليم الدين وحيث كان التدين عند الناس معلماً واضحاً في حياتهم.أما في العصر الحديث فقد أصبح الدين هامشياً في حياتهم وأصبحت آداب المزاولة وأخلاق المهنة مقلقة ومؤرقة..[39]وذلك لسببين:

الأول: التطور الطبي التكنولوجي الهائل الذي أدى إلى ظهور معظلات طبية جديدة مثل مشاريع أطفال الأنابيب واختيار جنس الجنين والتدخل في الأمراض الوراثية الجينية...وغيرها مما أصبح له أبعادا خلقية وأدبية على حياة الناس. [40] وهناك مئات القرارات الفقهية حول الأمراض الجينية والخلايا الجذعية وزرع الأعضاء بما فيها الأعضاء التناسلية وعمليات الجراحة التجميلية Cosmetic Surgeryوعمليات تغيير الجنس، وموضوع منع الحمل والإجهاض وموضوع موت الدماغ إلى غير ذلك من القضايا.[41]

الثاني: زيادة نسبة الخروقات الأدبية والأخلاقية من قبل الأطباء الممارسين. فقد وجد الطبيب الغربي نفسه محاطاً بمعضلة، لأن القيم الأخلاقية وارتباطها بالدين ليس جزءاً من ممارسته الطبية في حياته، لذلك كان لابد من صياغة وتهذيب آداب هذه الممارسة من جديد.[42] لم يواجه المسلمون مثل هذه المعضلة، لأن النظام الإسلامي يختلف عن النظام الوضعي، فالنظام الإسلامي مبني على أسس متكاملة من الآداب والأخلاق بحيث يستطيع من خلال ذلك التعامل مع جميع المشكلات الطبية وحلها بطرق مشروعة، ناهيك عن مرونته وقابليته للتكيف والتفاعل مع الكثير من القضايا المعاصرة.[43]

أولا: خصائص الطبيب المسلم

على الطبيب أن يعلم جيداً أنه في موضع قيادة المجموعة التي يكمل بعضها بعضاً في الحقل الطبي، وأنه في موضع القدوة منهم. وبالتالي فعليه أن يتحلى بعدد من الأخلاق والصفات ويعمل على تنميتها في نفسه وفيمن حوله ممن يعملون معه. ومن بين تلك الأخلاق:

الإخلاص واستشعار العبودية لله:من أهم ما يجب أن يتصف به الطبيب إخلاص النية لله تعالى، واستشعار العبودية له سبحانه، قال الله عز شأنه:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]. فعلى الطبيب المسلم أن يخلص أعماله كلها لله تعالى. وعليه أن يستشعر مراقبة الله عزوجل في كل أحواله، وأنه محاسب على كل صغيرة وكبيرة.[44] كما عليه أن يكون عضواً حيوياً في المجتمع، يتفاعل معه ويؤثر فيه ويهتم بأموره، وأن يوظف كل طاقاته وإمكانياته لخدمة المجتمع في المجال الصحي، وأن يكون عمله دائماً ابتغاء مرضاة الله، وأن لا ينخرط في أية ممارسات أو سلوكيات غير أخلاقية أو تضر بالمجتمع.[45]

الإيمان بشرف المهنة:مهنة الطب من أشرف المهن غير أن ذلك رهين بشرطين، أولهما أن تمارس بكل إتقان وإخلاص، وثانيهما أن يراعي الطبيب في سلوكه وتصرفاته الخلق الكريم.

ويصف ابن أبي أصيبعة صناعة الطب بأنها: "من أشرف الصنائع، وأربح البضائع، وقد ورد تفضيلها في الكتب الإلهية، والأوامر الشرعية، حتى جعل علم الأبدان قريناً لعلم الأديان".[46]

ويلخص الرازي فضل الأطباء في بعض خصال لم تجتمع لغيرهم:[47]

- اتفاق أهل الملك والأديان على تفضيل صناعتهم.
- اعتراف الملوك والسوقة بشدة الحاجة إليهم.
- مجاهدة ما غاب عن أبصارهم(يعني محاولة اكتشاف المجهول).
- اهتمامهم الدائم بإدخال السرور والراحة على غيرهم.

التعليم الذاتي: إن ممارسة الطب مع الجهل موجبة للضمان سواء أكان الجهل كلياً كأن يقوم ممرض أو عامي بممارسة الطب والتطبيب، أم كان جهلاً جزئياً كأن يقوم طبيب باطني بإجراء جراحة في العيون، والمتطبب الجاهل يضمن اتفاقاً.[48] وقد قنن المسلمون مهنة الطب منذ زمن بعيد، ففي عام ٣١٩هجرية أمر الخليفة العباسي المقتدر محتسبه إبراهيم بن بطحا بن أبي أصيبعة بمنع جميع الأطباء من المعالجة إلا من امتحنه رئيس الأطباء في ذلك العهد وهو(سنان بن ثابت بن قرة) وكتب له رقعة بما يُطلق له التصرف فيه من الصناعة، وقد امتحن في بغداد وحدها وقتذاك ٨٠٠ طبيب عدا الذين لم يدخلوا الامتحان لشهرتهم وعلو شأنهم في الطب.

المنهج العلمي في التفكير: القرآن الكريم يطلب منا أن ننهج في تفكيرنا منهجاً يعتمد على التدبر والتبصر والتعقل، يعتمد على التساؤل وربط الأسباب بالنتائج والحوار. والواقع أن مناهجنا في التربية والتعليم -في أغلبها- تهيئ الطلبة للحفظ، وتعدهم لدخول الامتحان أكثر مما تهيئهم للتفكير، والاستنتاج والاستنباط، وأكثر مما تعدهم للحوار والنقاش، وربط الأسباب بالنتائج، ومن ثم ليس لنا أن نستغرب قلة المخترعين والمبتكرين، والمجددين في مختلف مجالات العلوم.[50]

التحلي بمكارم الأخلاق.

الصدق:جاء في الأمثال أن الصدق رأس مال التاجر، فما بالنا بالطبيب، الذي يدور محور حياته على تعامله مع الناس، الصدق بالنسبة إليه ضرورة حتمية، لكي يكسب ثقة مرضاه والمجتمع،[51] ولا يليق بمن كان قدوة لغيره موصوفاً بالمعرفة والحكمة أن يتهم بالكذب،[52] فإذا تبين أن الطبيب قد كذب على مريضه وترتب على ذلك ضرر في نفسه، فإن الطبيب يعتبر مسؤولاً عن هذا الضرر.[53]

الأمانة والنزاهة: هذا المبدأ يتطلب من الأطباء الوفاء والإخلاص مع المرضى وهذا يشمل الوفاء في العمل والوفاء على ما جرى الاتفاق عليه والوفاء على الرابطة والثقة والأمانة.[54] والطبيب مؤتمن على الأرواح والأعراض، فلابد أن يتصف بالأمانة، وأن يؤدي هذه الأمانة على وجهها الصحيح قال تعالى واصفا المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ومن الأمانة المحافظة على أسرار المرضى وما يطلع عليه الطبيب من مكنوناتهم.[55]

التواضع واحترام الآخرين:شيمة التواضع يجب أن يتصف بها كل إنسان خاصة من كان يتصدى للخدمة العامة. والتواضع ينبع من الأعماق ويرتكز على معرفة الإنسان لربه ولنفسه، ويعرف العالم فيه قدر نفسه، إذ أنه مهما بلغ من العلم فهو لازال جاهلاً بكثير من أسرار الكون، وإذا كان هناك أولويات في اقتدائنا بسنة النبي فالتواضع من هذه الأولويات.[56]

الصبر والحلم: الطب مهنة شاقة مضنية، والتعامل مع نوعيات مختلفة من فئات المجتمع يتطلب قدراً كبيراً من الصبر وسعة الصدر. فلابد للطبيب أن يتحلى بقدر كبير من الصبر والحلم

والأناة. فالطبيب الصبور يتحمل تصرفات المرضى ويعذر ضيق خلق بعضهم بسبب المرض والألم، ولا يقابل الأذى بمثله كأن يمتنع عن معالجة مريض أغلظ مثلاً، أو يقصر في إعطائه حقه الكامل من الرعاية.[57]

العطف والمحبة: المحبة نور يخرج من القلب، ويضفي ضياءه على الآخرين والكون والأشياء، ويعود النور فينعكس على صاحبه، فيضفي عليه صفاء ورضى وطمأنينة. والإنسان الذي تملأ إهابه المحبة، إنسان قادر على العطاء والإحسان والخير والعفو، وكلها صفات كريمة، يحييها في نفوسنا القرآن الكريم:
﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة:٨٣].
﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص:٧٧].
﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[النساء:٨٦].
﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[آل عمران:١٣٤].
﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة:١٣].

وينبغي أن يكون الطبيب محباً لمرضاه، عطوفاً عليهم، رفيقاً بهم. وعليه أن يكون لبقاً، متلطفاً بمرضاه، فلا يقول لهم ما يوهنهم أو يوقعهم في براثن اليأس.

مراقبة النفس: إذا كانت المحبة والصدق والتواضع جواهر الأخلاق، فلا بد أن يكون هناك محك يعرف الإنسان به صدق هذه الفضائل من زيفها في نفسه، وهذا المحك له وسيلتان[58]: أولهما محاسبة النفس، المحاسبة العادلة التي تؤدي بالإنسان إلى حد الغلو في استصغار النفس وتحقيرها، ولا تذهب به إلى المبالغة في الإحساس بالذنب والتقصير.أما الوسيلة الثانية: فهي ذكر الله، وقراءة القرآن، والعودة إلى سيرة المصطفى بالمطالعة والدرس والاعتبار.

وكلما تذكر المؤمن الله في قوله وعمله، وجعل كتاب الله إماماً يهتدي بهداه، اطمأنت نفسه إلى أنه على الصراط المستقيم، صراط الحق والنور والخير. يقول ذو العزة والجلال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨]. وكلما اتقى الله شملته حماية المولى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢].

الطبيب في الغالب شخصية مرموقة تحصى خطواته، ولذا فإن أخطاء الطبيب وزلاته كثيراً ما تكون شأناً عاماً يتناقله الناس، ومن ثم فإنه ينبغي للطبيب أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره.[59] ولأن الكمال لله سبحانه وتعالى، فإن مراقبة النفس وحسابها الحساب الموضوعي المعتدل، سوف يبصر الطبيب المسلم بجوانب الضعف فيه، ويظهره على أخطائه، وإذا صدقت النية على إصلاح النفس وتهذيبها، فباب التوبة إلى الله مفتوح على مصراعيه[60] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[النساء:١١٠].

ثانيا: واجبات الطبيب نحو المرضى.
على الطبيب أن يقدم الرعاية الطبية اللازمة لمرضاه والتي تقتضيها احتياجاتهم الطبية بدقة وإتقان ساعياً لتحقيق مصلحة المريض، متجنباً الإضرار به، محترماً كرامته، مراعياً لحقوقه، وذلك في إطار الأخلاق التي تمليها الشريعة الإسلامية ومنها:

1)حسن معاملة المريض: من واجب الطبيب نحو مريضه حسن المعاملة في كل الأحوال، ويشمل ذلك الأمور التالية:[61]

- حسن الاستماع لشكوى المريض وفهم معاناته، والرفق به أثناء الفحص.[62]
- تجنب التعالي على المريض والنظرة الدونية، أو الاستهزاء والسخرية به مهما كان مستواه العلمي أو الاجتماعي.
- احترام وجهة نظر المريض، خاصة في الأمور التي تتعلق به شخصياً ولا يمنع ذلك من توجيه المريض التوجيه المناسب.
- المساواة في المعاملة بين جميع المرضى وعدم التفريق بينهم في الرعاية الطبية بسبب تباين مراكزهم الأدبية أو الاجتماعية أو شعوره الشخصي نحوهم.[63]
- تثقيف المريض عن مرضه خصوصاً وصحته عموماً، وكيفية حفظه لصحته ووقايته من الأمراض بالطرق المناسبة والفعالة، ومن أهمها التثقيف المباشر وجهاً لوجه أو استخدام الوسائل الفعالة الأخرى متى توفرت له.[64]

2) استئذان المريض: بدن الإنسان ونفسه من خصوصياته التي لا يجوز لأحد أن يتصرف فيها بغير[65]

3) طمأنة المريض: على الطبيب أن يستخدم مهاراته في طمأنة المريض وتخفيف مصابه وذلك عملاً بقول الرسول(ص): "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولاتنفروا".[66]

وتؤكد الشريعة الإسلامية على التلطف بالمريض والرفق به في التعريف بمرضه ومراعاة الحالة النفسية للمريض مع عدم إغفال الطبيب للآيات القرآنية والأحاديث الداعية للصبر عند البلاء،[67] فعلى الطبيب أن يبشر مريضه بالأخبار الطيبة السارة التي تدخل لقلبه الراحة والطمأنينة كاستجابة جسده للعلاج الموصوف له، أوعدم وجود مرض خطير كان متوقعاً وبعد إجراء التحاليل الطبية ثبت خلوه منه، ولهذا بشر الله أهل الإيمان بالعديد من النعم كما تحث السنة النبوية الشريفة على بعث الأمل في نفوس المرضى فتوجه الأصحاء إذا دخلوا على المريض أن يطمئنوه بطول الأجل لترضية نفسه، وذهاب دواعي اليأس والحزن عنده، [68] مما يعمل على إنزال السكينة والطمأنينة في قلب المريض وزيادة ثقته بربه تهون بها ما سواه.[69]

4) مراعاة أحكام كشف العورة: إن حفظ العورات حق شرعي وحق شخصي،تدعيما لقوله تعالى:﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[النور: 30].

5) كتمان السر: إن طبيعة العلاقة بين الطبيب والمريض تتيح للأول الإطلاع على خصوصيات وأسرار مريضه التي لا يبوح بها الأخير إلاّ مضطراً، وسواء أكان السر متعلقاً بنفس المرض أم بخصوصيات أخرى اطلع عليها الطبيب بحكم المهنة، فإن هذا السر أمانة لا يحل له البوح بها بدون إذن أو ضرورة.

6)خلاصة القول أن الطبيب المسلم:[70]

- يجب أن يؤمن بالله وبتعاليم الإسلام وسلوكياته في حياته الخاصة والعامة.
- وأن يكون عارفاً لجميل والديه ومعلميه ومن هم أكبر منه.
- وأن يكون بسيطاً متواضعاً رقيقاً رحيماً صبوراً متحملاً.
- وأن يسلك الطريق المستقيم ويطلب من الله دوام التوفيق.
- وأن يظل دائماً على دراية بالعلوم الطبية الحديثة وينمي مهارته باستمرار، طالباً العون عندما يلزمه ذلك.
- وأن يلتزم بالقوانين التي تنظم مهنته.
- وأن يستشعر أن الله هو الذي يخلق ويملك جسد المريض وعقله فيعامل المريض في إطار تعاليم الله متذكراً أن الحياة هي هبة الله للإنسان، وأن الحياة الآدمية تبدأ من

لحظة الإخصاب ولا يمكن سلبها إلا بيد الله أو برخصة منه.

- ويتذكر أن الله يراقب ويسجل كل فكر أو عمل.
- وأن يتبع أوامر الله كمنهج وحيد حتى لو اختلفت مع متطلبات الناس أو رغبات المريض.
- وأن لايصنع أو يعطي أي شيء ضار.
- وأن يقدم المساعدة اللازمة دون اعتبار للقدرة المادية أو أصل المريض نفسه.
- وأن يحفض سر المريض، ويتوخى الأسلوب المناسب في التخاطب.
- وأن يفحص المريضة من الجنس الآخر في وجود شخص ثالث ما تيسر ذلك.
- وألا ينتقد زملاءه الأطباء أمام المرضى أو العاملين في الحقل الطبي.
- وأن يسعى دائما تبني الحكمة في كل قراراته.

الخاتمة

بعد هذا الإستعراض المقتضب في موضوع الممارسة الطبية في ضوء منظومة المقاصد الشرعية، يتبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك، بأن الإسلام له رؤية مقاصدية أخلاقية متكاملة للممارسة الطبية، مؤسسة على مجموعة أسس منها: مقاصد الشريعة، المنظومة الأخلاقية الإسلامية، خدمة الإنسان والمجتمع بوصفها رسالة اجتماعية، مراعاة حقوق المريض، الأداء الذي يرتقي إلى الإتقان ويجمع بين التقوى والإحسان...وغيرها. كما بين البحث مجموعة من القيم الأخلاقية والممارسات الراقية التي أثرت على كبار الأطباء في الحضارة الإسلامية، وكذلك الجهود الرائدة التي قام بها المسلمون لتطوير الممارسة الطبية والعلوم الطبية عموماً وجعلها في مصاف العلوم، والمعارف، والخبرات الإنسانية حتى أصبحت ملكة ومهنة لها قواعدها، ومعاييرها، وأخلاقياتها، وأسسها، وضوابطها، وتطبيقاتها المتنوعة.

وبالإضافة إلى تأكيد الإسلام على الممارسة الطبية المؤسسة على المقاصد والقيم، وتطويرها بشكل ملفت، إلا أن هناك حاجة إلى جهود كبيرة لدراسة هذا المجال من الحضارة الإسلامية، وبيان الخبرات الإسلامية في الممارسات الطبية سواء ما تعلق بالمنهج أو المقاصد والأهداف أو القيم والأخلاقيات، أو الإبداع والإبتكار في الممارسة الطبية وغيرها من المجالات. ومن ثم ندعو الباحثين والمختصين بتعميق الأبحاث في هذه المجالات من أجل بيان هذا الجانب المشرف من الممارسة الطبية في الحضارة الإسلامية، وتطوير ما ينبغي تطويره ليتناسب مع واقعنا الحالي، وإبداع وإبتكار ما يصلح لظروفنا وأحوالنا مستهدين بمقاصد الشريعة، وبقيم الإسلام الكبرى في الحفاظ على الحياة والنفس من الهلاك والتلف.

وأخيراً أنبه على أسبقية الإسلام والفقهاء في تقنين شروط وضوابط ممارسة المهنة؛ بحيث نرى أحدث المعايير المعاصرة لممارسة الطب مقرراً منذ القديم عند فقهائنا رحمة الله عليهم، مما يؤكد سعة واستيعاب الشريعة الإسلامية لجميع النوازل المستجدة في مجال الطب وغيره، ولكن هذا لا يعني الوقوف عند الصور والأمثلة المذكورة في متون وكتب الفقه، بل لا بد من تكثيف الجهود ما بين الأطباء والفقهاء والقانونيين من أجل وضع تقنينات تفصيلية تستوعب متطلبات العصر وتنبني على أصول الشرع وتحتكم إلى شرع الله تعالى تحقيقاً للعدل والتقدم والحضارة بكل أبعادها الدينية والدنيوية.

المصادر والمراجع

1. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، (السعودية، ط2، د.ت)، ص2.
2. د.وسيم فتح الله، الخطأ الطبي مفهومه وآثاره، د.ت، ص2.
3. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، ص3.
4. المصدر السابق، ص4.
5. المصدر السابق، ص4.
6. إحسان دوغر وماجي، مستقبل الطب الإسلامي، مؤتمر الأخلاقيات الطبية في الإسلام، موقع im، 31 يناير 2016م.
7. عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، (مصر: دار نهضة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2002،2م)، ص37.
8. إحسان دوغر وماجي، مستقبل الطب الإسلامي، مؤتمر الأخلاقيات الطبية في الإسلام، موقع im، 31 يناير 2016م.
9. المصدر السابق
10. المصدر السابق
11. د.وسيم فتح الله، الخطأ الطبي مفهومه وآثاره، د.ت، ص2.
12. المصدر السابق، ص2.
13. أحمد الريسوني، الأخلاق في الطب ...تأسيس مقاصدي، ندوة الأخلاق الإسلامية والطب، المنظمة من قبل مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، بالدوحة، في ٥-٧ يناير ٢٠١٣م ، ص1.
14. المصدر السابق ص13.
15. د.محمد عيد شبير، الأخلاقيات المتعلقة بمهنة التحاليل الطبية، د.ت، ص9.
16. المصدر السابق، ص10.
17. المصدر السابق،ص10.
18. المصدر السابق،ص10.
19. المصدر السابق،ص10.
20. أحمد الريسوني، الأخلاق في الطب ...تأسيس مقاصدي، ص13-14.
21. المصدر السابق،ص14.
22. ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (الأردن: دار النفائس، 2001م) ص207.
23. أحمد الريسوني، الأخلاق في الطب ...تأسيس مقاصدي، ص21.
24. المصدر السابق، ص35.
25. ابن الكثير: البداية والنهاية9/60، تحقيق علي شيري، (دار إحياء التراث العربي، ط1988،1م).
26. مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، (القاهرة: دار السلام، ط1998،1م)، ص122.
27. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء فيطبقات الأطباء 1/70.
28. راغب السرجاني، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص37.

29. المصدر السابق، ص37.
30. عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص36.
31. راغب السرجاني، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص37.
32. المصدر السابق، ص38.
33. المصدر السابق، ص39.
34. المصدر السابق، ص39.
35. المصدر السابق، ص40.
36. المصدر السابق، ص40.
37. المصدر السابق، ص41.
38. أبو داود: كتاب في الطب، باب في الأدوية المكروهة(3874)، والبيهقي في سننه الكبرى(19465).
39. د.محمد عيد شبير، الأخلاقيات المتعلقة بمهنة التحاليل الطبية، ص5.
40. د.محمد علي البار، الأخلاق الطبية في الإسلام: لمحات تاريخية، مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، قطر، د.ت.
41. المصدر السابق.
42. د.محمد عيد شبير، الأخلاقيات المتعلقة بمهنة التحاليل الطبية، ص5.
43. المصدر السابق،ص5.
44. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، ص6.
45. الميثاق الإسلامي العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية، المادة 44، ص13.
46. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1969م)، ص7.
47. أبو بكر محمد الرازي، أخلاق الطبيب، تحقيق عبد اللطيف محمد العبد (القاهرة: مكتبة دار التراث، 1977م)، ص77-88.
48. د.وسيم فتح الله، الخطأ الطبي مفهومه وآثاره، ص12.
49. د.عبد الله منجود، الممارسات الطبية بين خطأ الطبيب ومضاعفات المرض، Eastern Mediterranean health Journal, Volume 10, Noa1/2, January/March2004, Pages 198-207.
50. المصدر السابق، ص48.
51. أحمد السباعي و علي البار، الطبيب أدبه وفقهه، ص56-57.
52. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، ص6.
53. د.وسيم فتح الله، الخطأ الطبي مفهومه وآثاره، ص7.
54. د.محمد عيد شبير، الأخلاقيات المتعلقة بمهنة التحاليل الطبية، ص15.
55. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، ص6.
56. أحمد السباعي و علي البار، الطبيب أدبه وفقهه، ص68.
57. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، ص6.
58. أحمد السباعي و علي البار، الطبيب أدبه وفقهه، ص68-69.
59. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، ص7.
60. أحمد السباعي و علي البار، الطبيب أدبه وفقهه، ص72.
61. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، ص8.
62. الميثاق الإسلامي العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية، جامعة منيسوتا، مكتبة حقوق الإنسان، المادة 2، ص1.
63. المصدر السابق،المادة 3، ص1.
64. المصدر السابق،المادة 13، ص4.
65. د. حسين محمد الفريحي، أخلاقيات مهنة الطب، ص9.
66. أخرجه البخاري ومسلم
67. يوسف محمد طردة، المسؤولية الجنائية المترتبة على عمل الطبيب في الفقه الإسلامي، (جامعة الخليل، 2011م)، ص6.
68. النبراوي خديجة، حقوق الإنسان في الإسلام، (القاهرة: دار السلام، 2006م)، ص249.
69. أبي حديفة ابراهيم بن محمد، نفح الطيب في آداب وأحكام الطبيب، (طنطا: دار الصحابة للتراث، 1990م)، ص 41.
70. أيمن محمد أبو صالح، أخلاقيات مهنة الطب في الدين الإسلامي، الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، يناير ٢٠١١.